متعة الحلم وصدمة الواقع في رواية (رائحةُ التفاصيل) لـ سليمان الصدّي

مژده حسن محمد، ساجدة زرار عزيز
أربيل / كلية التربية ، جامعة صلاح الدين

ملخص البحث

يحتفي البحث الموسوم (متعة الحلم وصدمة الواقع في رواية رائحة التفاصيل) لـ (سليمان الصدّي) بالسيرة الذاتية لعزام العبد الله التي تمثل الصورة التاريخية الاولى من حياة الراوي الذاتي عزام العبد الله الذي هو محور الحدث ومركز الفاعلية السردية، ومن التغني بهذه السيرة تتناسل ثنائية الحلم والواقع ، متعة حلم الوصول الى الشمس وصدمة الانسان العربي من السواطير التي تهاجم الأساطير وتذبح حلم الانسانية ، فكانت هذه الرواية رائحة لتفاصيل الواقع الانساني المقموع ونافذة حلمٍ لمعراج ذات الانسان المتحررة من براثن سلاطين الأُسرة والدين والدولة ومكائد النساء.

وسربل (عزام العبد الله) الشخصية الرئيسة في رواية (رائحة التفاصيل) رغبته الحلمية للوصول الى مملكة الشمس برداء مطرّز بألوان من أحلام لبناء صروح مملكة الشمس ، مملكة سماؤها الفكر، وأرضها مودّة الوالدين ، وجدرانُها أمانٌ من الخوف والتوتر ونهارُها نور الحبيبة ، وفصولها الأربعة عطرُها ، وهواؤها نسماتُ التحرر والعدالة الإجتماعية ، لا فرق فيها بين أبيضٍ وأسودٍ إلاّ بحب الإنسانية .

مقدمة

تُعد الأحلام علامات دالة على الأنساق الثقافية ، وقد كوّنت رؤيا إبراهيم عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم بنية معرفية داخل حضارة إنسانية ، وهذا ما ينسجم مع رؤية غاستون باشلار بأن الحلم قدر الإنسان يسكنه ويُلازمه ولا يقف الأمر عند ذلك بل يعده عصا الإنسان السحرية التي تسلطه عمّا يشاء وتمكّنه مما يشاء[i] ، فجاء هذا البحث الموسوم (متعة الحلم وصدمة الواقع في رواية رائحة التفاصيل لـ سليمان الصدّي) لبيان القدر الذي يسكن عزام العبد الله ضمن سيرة ذاتية . والحلم في هذه الدراسة لا يعني ما يراه النائم أثناء نومه ، كما أنه لا يرد بمفهوم حلم اليقظة ، بل هو أقرب إلى الرغبة بالشيء ، وهي (إلزام الذات بتحقيق هدف معين ، إنها تعني أن الشخص بالكامل يُصبح موجّهاً ومكرّساً إلى شيء محدد اتخذ قراراً بشأنه ، فتتدفق كل طاقته باتجاه هدفه المختار)[ii] ، والحلم يرتبط بالمتعة بوصفه مطلوباً يُسعى للحصول عليه، أما الواقع فيأتي بمعنى السقوط و النزول أو الثبوت والوجوب[iii] وهو قابل للادراك الحسي المباشر ، ويُمكن القول بأنه يعني الحقيقة والموجود ، ومنشأ الصدمة أن الحالم عادة ما يكون في حالة رفض لما هو ثابت وواقع . والرواية تعبّر عن الواقع والثابت وتحاول أن تناقشه من منطلق الحلم بما هو أفضل وأجمل ، والنص الأدبي عادة يتضمن هُوية الكاتب الذي يحوّر الأحداث الواقعية لكينونة لغوية تحيلها من الواقعي إلى الجمالي في إطار بنية سردية. وتعد رواية السيرة الذاتية أفضل مجال تتحقق فيه هُوية الكاتب في تحويل تاريخه الذاتي إلى نتاج أدبي يبين تطور الوعي لديه في مختلف مراحله ، ويستفيد في ذلك من تقنيات وآليات تعرض الوقائع بصورة مثيرة وشيقة، وغالباً ما تسرد الأحداث بضمير المتكلم (الأنا) وربما استعان الكاتب بذوات أخرى شرط أن لا تخرج الرواية عن السيرة الذاتية[iv] تعد رواية رائحة التفاصيل رواية سيرة ذاتية، فالراوي يؤكد السيرة فيها وينفيها في الوقت نفسه. من خلال البنية الثنائية للحلم والواقع في اشكال تعبيرية تُضمر رغائب الثالوث المحرم (السلطة – الدين – الجنس)، وتخضع للرقيب الداخلي المحفوف بالمكبوتات، والخارجي المدجج بالمقموعات. ومتعة الحلم وصدمة الواقع المعاش هما من محفزات السرد والحلم بامتطاء مهر

الشمس، على الرغم من السقطات والانكسارات ، توظف الحلم والواقع في النص الروائي توظيفاً متقصداً من قبل السارد وفي حالة الوعي بها، فالمساحة الزمنية لمتعة الحلم يمتد من عمر احدى عشرة سنة ويستمر وهو في خريف العمر.

يتضمن البحث تمهيداً في تضافر الحلم والرواية لبناء صروح من العوالم الخيالية ، أما المتن فقد جاء على محاور ، تناول المحور الأول بناء الحلم (السلطة الامومية) ، أما المحور الثاني فيتضمن الانتقال (السلطة الأبوية) بينما يحاول المحور الثالث تسليط الضوء على الذات الانسانية فيما يذهب المحور الرابع باتجاه الحب الأخوي والمحور الخامس نحو الحب الجنسي (النفعي) والمحور السادس يتكأ على حب البقاء والاستمرارية ويرصد المحور السابع الحب الأمومي وينبش المحور الثامن في البحث عن الخلاص ثم ينقب المحور التاسع في المشروع الانساني وهو متعة الحلم الاساس عند عزام العبد الله.

واتكأ البحث على منهج التحليل النفسي الاجتماعي ولا سيما رؤية اريك فروم عن الطبيعة الانسانية للغوص في اعماق ذات عزام العبد الله (ذات الانسان) في عزمه للوصول الى مملكة الشمس ، مملكة تسود فيها المساواة في الفكر والدين واللون وعدالة السلطة والتحرر.

بناء الحلم (السلطة الامومية)

لعل أبرز ما يميز رواية السيرة الذاتية استرجاع زمن الطفولة واستعادة مشاهد وصور لأحداث تعد جوهرية في تكوين شخصية الإنسان وتوجه سلوكه فيما بعد. وأول مدخل لمعرفة حياة الإنسان هو الأسرة فهي (اللبنة الاساسية في هيكل المجتمع، وهي النقطة الأولى التي بدأ منها التطور، تبعاً للوظائف المختلفة التي تؤديها للمجتمع، لتعزز عرى التواصل والتوافق بين أفراد المجتمع) [v] أن الصور التي يسترجعها عزام العبد الله تبيّن نمط علاقة الوالدين بأبنائهم وتسلط الضوء على شخصية كل منهما ودوره في توجيه سلوك الأبناء من خلال تعامله داخل الأسرة.

فالأم توجه الأبناء وتساعدهم على تطور الوعي لديهم و في (الحالة المثالية لا تحاول الأم أن تمنع الطفل من أن يشب عن الطوق، ولا تحاول أن تشجعه على العجز. ان الأم لديها إيمان بالحياة، ومن ثم فهي غير مفرطة في القلق، ومن ثم فهي لا تبث قلقها في الطفل. ان جزءا من حياتها يجب أن يكون الرغبة في أن يصبح الطفل مستقلا وأن ينفصل عنها)[vi] بعدما كان متصلاً بها تماماً. بينما الأب له دور مخالف فهو غير متسامح، متسلط ومهدد يستخدم العنف اللغوي والجسدي في تعامله ليس مع الأبناء فقط وإنما مع الزوجة ايضاً. فاذا كانت الأم تمثل مصدر أمن وتشجيع فإن الأب يمثل مصدر سخط وتهديد.

والسلطة في الأسرة مستمدة من الدين ، وفي الدين كانت هناك مرحلتان ، المرحلة الأمومية والمرحلة الأبوية ، ويبدو أن المرحلة الأمومية سبقت المرحلة الأبوية ، وفي تلك المرحلة كانت الأم هي الكائن الأسمى . إنها الآلهة ، والسلطة في الأسرة والمجتمع. وحب الأم مطلق وشامل حضوره يعطي المحبوب شعوراً بالنعمة وغيابه ينتج شعوراً بالضياع واليأس، وكل الناس متساوون لأنهم جميعاً أطفال الأرض الأم.[vii] من هنا لاينفك عزام العبد الله يذكر صورة أمه في سرده وينسج اجمل الورود في ضفائرها المعطرة برائحة عشق الشام الازلي فقد زرعت الام في مخيلة ابنها حلم الوصول الى الشمس (مرت في خاطري صورة أمي حين أعطتني ذات يوم قطعة نقدية ورقية، طلبت إليّ ألا أعاشر إلا الكبار، قالت لي إنها تشعر أني سأصبح شخصاً مهماً جداً)[viii] وهي سبب في تكوين شبكة من العلاقات فقد كانت تقول له (ادع الناس الى الولائم ، تصرف كرجل ، لا تتأثر بموقف والدك من الصداقات والضيوف.) [ix] وهي التي حررت قلبه من الخوف (وكان الخوف يتلبسني من دخول سورية، لكن أمي زرعت في قلبي بذور الأمان وهمست في أذني :

- لا تخف يا ولدي سندخل معاً إلى سورية

كان خوفي من المرور بالهجرة والجوازات على الحدود اللبنانية السورية، فقد كان اسمي مسجّلاً عندهم، فأنا مطلوب للخدمة الإلزامية... حين أخبرتني شعرت أن الخوف الذي تلبسني قد بدأ بالتلاشي، وأني عصفور، فُتح له باب القفص)[x] فتحرر بذلك من خوفه.وتظلّ الأم مصدر أمان وراحة لعزام العبد الله وصولا إلى مرحلة علاقته بـ مارلا التي أحبها عزام العبد الله إلى حدود التلاشي ولم يُرد غيرها بينما كانت ارادة الأم هي الزواج وانجاب الولد وقد شكّلت رغبتها بذلك عائقا أمام بقاء ابنها مع المرأة التي عشقها

ورغب في الزواج منها، وقد صرّح عزام العبد الله (كانت أمي في موقفها سبب حزني في حياتي الآتية، فقد كانت عائقاً أمام ارتباطي بمارلا، وكنت أرضخ لمشيئة أمي؛ لأن عندي إيماناً أن من يعصِ أمه يرتكب إثماً عظيماً)[xi].

وتقابل صورة الأم (الأمان) في ترسيخ الثقة في نفس عزام العبد الله وتشجيعه على تحقيق أحلامه، صورة الأب المتسلط (الخوف) فهذه الرواية تتغذى في تجسيدها للواقع العربي، باتخاذها السلطة احدى محاوره ويوظف الراوي مفاهيم لرمزية السلطة منها : أولو الأمر، الحزب، المؤسسة، الحاكم (الملك). وان جزءا اساسيا من الثقافة التي تشكلت لدى الشخصيات في الرواية تقضي بان للسلطة صورة خاصة، فالاب هو رب الاسرة وهو اول سلطة حاكمة على الاسرة وهوظل الله في الارض وحكمه واسع على رقاب افراد الاسرة.

وأول حلم انكسر على سلطة (الاب) الزمن المطلق في بيته، اذ اصطدم عزام العبد الله في صفحات الرواية بواقع العنف الاسري وذلك بممارسة الاب لفعلي الضرب والسب حين تظهر نواة أول حلم لابنه وهو أن يكون مخرجا سينمائيا متخرجا في هوليوود، فيخطر بباله نقل السينما الى بيتهم الصغير في القرية، ويصنع بأدوات بدائية ما يشبه العرض السينمائي (كنا صغاراً لم نتجاوز الحادية عشرة، أشعلت شموعاً، ووضعتها في نافذة غرفتي الحجرية، وسترت الشموع بقطعة خيش، ثم أخذت مجموعة صور، وشرعت بتمريرها خلف الشموع، فبدا عرضاً سينمائياً، كان حلمي أن أكون مخرجاً سينمائياً متخرجاً في هوليوود، ولم تكن الناس التي حولي حينها تعرف أين تكون هوليوود، فجأة دخل أبي، مزّق قطعة الخيش، فهرب الأطفال خوفاً منه، أما أنا فنلت نصيبي من الضرب والرمي خارج البيت)[xii] وتتبين سلطة الحزم في تعامله معهم، (كان أبي يضع القمح بأكياس الخيش، نادى يوماً أختي لتحضر له الخيوط، لكنه صرخ في وجهها :

-طلبت منك إحضار خيوط مصّيص

خافت أختي، وهربت، فأمسك بها وبيده الشاعوب، حاولت أن أحميها لكنه ضربني وألقاني أرضاً، ثم رمى بأختي، ووضع الشاعوب على ظهرها، فمزق قلبي صوتها وهي تتألم .

كشفتُ عن ظهرها فوجدت الدم يسيل منه، وحين نظرت إلى أبي عاجلني بهديره المعهود :

لا تنظر إليّ هكذا.. وإلا ذبحتك... فهمت يا كلب)[xiii]. وتحفر هذه المواقف حزنا عميقا في نفسية عزام العبد الله وحين يطردهم الاب من بيتهم الى الشارع يمر بخاطره صورة أمه والضربات تتلاحق على جسدها (تجهم وجهه صارخاً في وجه أمي :

- تسرقين المال مني، وتعطينه إياه، لعن الله أباك وأباه

أخذت الضربات تتلاحق على جسد أمي، حاولت أن أخلصها منه لكنها ارتمت على الأرض، فشرع يهدّد :

- اليوم تخرجون من البيت وإلا طردتكم، وذبحتكم... سأعود بعد ساعة من أجده أمامي فسأذبحه

كانت هذه المواقف تحفر في نفسي عميقاً، كنت أحلم باليوم الذي سأستطيع تخليص أمي وإخوتي من ظلمه، طالبت والدتي بالخروج، لكنها قالت:

- إلى أين سنخرج؟ ليس أمامنا سوى الشارع)[xiv]

ان الطفولة والمراهقة التي عاشها عزام العبدالله كانت متذبذبة بين بناء الأم لشخصيته وتضخيمها من خلال الايحاء بأنه سيصبح شخصاً مهماً في المستقبل، وهدم والده لتلك الشخصية وتحقيره لها عن طريق السب والضرب و التمزيق، وللمجتمع دوره في تكوين وعي أفراده. ومن هنا يسترجع عزام العبد الله لحظة توقد الحلم لديه حين أهداه رجل مثقف في البلدة كتاب رأس المال وطلب منه قراءته ومناقشة افكاره، فانخرط في صفوف الشيوعيين متأثرا بما قرأه، وشعر أنه وجد ضالته (لقد صرت رجلاً..صار عندي حلم)[xv] وقد كان آنذاك مراهقاً في السادسة عشرة من عمره، ومرحلة المراهقة (تعتبر من أهم مراحل النمو لدى الانسان وفيها تتشكل البذور الأولى لرؤيته المستقبلية للعالم والوجود)[xvi] فيتغير بذلك نظرة الانسان إلى الكون والأشياء من حوله، (والتغير بهذا المعنى يتضمن تغيرات ارتقائية تدفع بالطفل قدماً إلى الأمام ولا تعود به إلى الوراء، كذلك ليس بالعملية العرضية إنما هو تغير منظم مترابط ترتبط خلاله كل مرحلة بعلاقة محددة بالمرحلة التي تليها بهدف الوصول بالشخصية إلى التوازن والتكامل)[xvii]. فالدوافع التي توجه السلوك الانساني تنبثق من ظروف وجوده والإشكال الأساس لديه أنه انحرف عن

الطبيعة بيد أنه لايزال فيها، مما يخلق لديه حالة من عدم التوازن تدفعه الى البحث عن ايجاد حل لها. (وهناك عدة وسائل تمكّن الفرد من تحقيق هذا الاتحاد. فذلك يكون إما بالخضوع لشخص معين، أو جماعة، أو نظام، أو إله)[xviii]

الانتقال (السلطة الابوية)

لقد أسهم كتاب جماليات المكان في إبراز دور المكان داخل النص الأدبي وركّز على المكان الأليف ودوره في تحقيق حلم اليقظة[xix] وقد سبقت الإشارة إلى تجربة عزام العبد الله في عمل شاشة سينمائية في غرفته وهو صغير، لقد كان حلمه أن يصبح مخرجا سينمائيا متخرجا من هوليوود، وتحمل مفردة (مخرج) معنى الصناعة أو الخلق ، فالحالم مخلوق يسعى لأن يصبح خالقاً ، لكن طريق الوصول إلى الخلق يمر عبر الخالق نفسه أي الوالد الذي يعمل في مملكة جزر النخيل ، وكان عزام العبد الله آنذاك في العشرينيات من عمره ، وتعد هذه المرحلة انطلاقاً نحو آفاق جديدة والخوض في تجارب مختلفة وفريدة ، ستحدد هذه المرحلة نمط الحياة التي سيختارها الانسان ، فإما الخضوع للحياة النمطية التي يحياها الأغلبية لسهولتها ، وإما التحدي والخوض في المجهول. (وعندما يخضع الانسان نتيجة لضعفه أو جهله لضغط هذه الاشياء، فان العالم يصبح مسطحا flat خاويا، خاليا من العمق والمعنى)[xx] وعزام العبد الله يرفض النمطية والواقع وينوي الخوض في المجهول طريقاً لتحقيق حلمه في الوصول الى الشمس.

والإنتقال من سوريا إلى مملكة جزر النخيل هو انتقال من المرحلة الأمومية إلى المرحلة الأبوية ، والإشارات في ذلك جلية تماما فسوريا تتميز بطبيعة خلابة خضراء (كانت الشمس قد مالت قليلاً عن كبد السماء، فلاح قرصُها من بعيد فوق قبة كنيسة بلدتي كأنه منبثق منها إلى السماء، أو عائد إليها بعد تجوال في أرجاء المعمورة، يغمر رؤوس الأشجار المخضرة، وجدران البيوت الحجرية، والطرقات الريفية المزركشة بأشجار الزيتون، ولآلئ سنابل القمح، تسري فوقها بأشعة لطيفة. حينها امتصت برودة تشرين لظاها، وأرسلت بين خيوطها الذهبية لطفاً ودعة، كانت بلدتي كل شيء جميل في حياتي، كنت أرنو إلى طرقاتها الترابية، وقد تراشقت الأشجار على أطرافها، فتتخايل لي كآلهة يونانية يجثو بين يديها عابدون ساعة السَّحر، أما السماء فقد طُرزت نواحيها بسحب رقيقة)[xxi] والحياة فيها آمنة وهانئة.، بينما مملكة جزر النخيل هي صحراء مترامية وجرود وحفارة والحياة فيها شقية (وفي هذه المرحلة تُخلع الأم عن عرش مكانتها السامية ، ويصبح الأب هو الكائن الأعلى ، في الدين والمجتمع على السواء . وطبيعة الحب الأبوي هي أنه يضع مطالب ويؤسس مباديء وقوانين وأن حبه لأبنه متوقف على طاعة الأخير لهذه المطالب)[xxii] فرِضا الأب مشروط بالتبعية ، فهو يوفر له العمل بشرط الخضوع لمطالبه كما يُخبره في معرض الترحيب به يوم وصوله إلى جزر النخيل وباسلوب الاستفهام الانكاري (... هل تعرف لماذا أتيت بك الى هنا ؟

- لا

- لكي أدوس على رقبتك صباحاً ومساء ...

- أنت تمون

- تتصرف كالأبطال، وتوزع مناشير للحزب الشيوعي في سورية؟! وصلني كل شيء عنك يا سافل.. هنا ستعمل من الصباح إلى المساء، هنا يوجد مال، ولا شيء سوى المال إنه كل شيء في الحياة)[xxiii]وتبدو محاولة الأب في سلب إرادة الابن أوضح حينما تحدُث مشادة كلامية بينه وبين أحد العاملين (معتوق) فاراد الوالد أن تكون شهادته لصالحه (أما والدي فطالبني بشهادة تناسبه إن دعيت إلى الشهادة)[xxiv] وفي موضع آخر يطالبه بطاعته (حين أتكلم لا تُجب عليك السمع والطاعة)[xxv] ولا تزال العلاقة بينهما في تصاعد مستمر إلى أن وصل إلى درجة الضرب (أمسك بصحن السجائر ورماني به فأصاب رأسي، وبدأ الدم النازف يتطاير، شعر بالارتباك، اقترب يريد رؤية الجرح لكني أبعدته بعصبية، ففتح الباب وخرج.)[xxvi] ومظهر آخر من مظاهر محاولة الهيمنة على عزام العبد الله من قبل والده هو المطالبة براتبه بذريعة حفظها (وتسلّم كل منا راتبه، طالبني والدي براتبي لكي يخبئه لي، فطالبته بمصروفي الشخصي لكنه رفض فأنا آكل وأشرب وهو يخشى أن أعود لعادتي.)[xxvii] شعر عزام العبد الله أن حياته في جزر النخيل لا تلائم طبيعة حلمه ولن يتمكن من تحقيقه بوجود الأب المهيمن الذي يؤنبه على أبسط الأمور التي يقوم بها ، هكذا حينما يذهب (معتوق) وهو زميل عمل له في إجازة ، لا يبقى أمام عزام سوى الوالد (أما أنا فبقيت مع والدي الذي كان يؤنبني دائماً: لو

تركت راتبك معك لصرفته مع حسني على الراقصات)[xxviii]. دفع سوء معاملة الوالد عزاماً إلى التفكير في العودة إلى سوريا حيث أمه ، إلى الطبيعة الأصل حيث الأمان والاستقرار ، لكن الوالد يخبره أن هذا محال (-سأربحك مني وأعود إلى سورية.

- هذا ما تريده.. أن تعود إلى رفاقك المشرّدين... أبشّرك أنك لن تحقق هذه الأمنية.)[xxix] وسوريا (الأرض) تعني الميل إلى المرحلة الأمومية ، لكن السلطة الحالية لا تقبل بذلك . وعلى عزام العبد الله أن يُكمل مسيرته ضمن هذه السلطة ويبقى في مكانه ، وكثيرا ما يشعر الانسان أنه مقيد في المكان ، وان انكسارات الواقع وصدمته يجعل من الانا مركز التوجه السردي، اذ ينتج ايديولوجيا معينة للسارد الروائي فتتحكم في بؤرته في تلابيب النص الروائي[xxx].

ان احساس عزام العبد الله برتابة الحياة في الجرود المترامية مع صوت والده الدائم وهو يؤنبه ويطالبه بالعمل والطاعة ترفع لديه حدة التوتر والشعور بالانكسار والدمار فـ(في هذه الجرود الشاسعة تتوارى الأحلام كالسراب.. والدي صعب جداً.. أنت تعرفينه أكثر مني.. .كي أصبح رجلاً مهماً.. هناك الحلم أقرب.. هنا أرى أحلامك وأحلامي تتكسر على صراخ والدي وشتائمه)[xxxi].

وتعود مظاهر العنف وتدمير البيئة واستهلاك الحياة الى جذر سيكولوجي واحد هو مبدأ النرفانا أو النزوع الى الدرجة صفر من التوتر، والانسان يحتاج الى الصبر الطويل، ولا يمكن للانسان ان يتجرع ألم العواطف لأن العواطف الصالحة ليست معطاة مسبقا قط فعلى كل امرىء ان يخترعها بدوره[xxxii]

تتصف علاقة عزام بوالده بسلبية تامة (كانت علاقتي بوالدي أنموذجاً للعلاقة السيئة بين الوالد وابنه، لم يكن لطيفاً، لم يحب أحداً، ولم يحترم أحداً منا، لم أستطع طوال سني عمره المديدة أن أفهمه، أو أصل إلى نتيجة لمَ يعاملنا بهذه القسوة .كل ما أعرفه أنه أب يحافظ على عائلته، درّسنا جميعاً، لم يحرمنا من شيء إلا من العاطفة. ظلت علاقتي به سيئة إلى أبعد الحدود فلم تكن كلمة نابية في قواميس اللغات كلها إلا أسمعني إياها، لم يكن نجاحي يعني له شيئاً، كان يتهمني أني أرمي بأموالي كيفما اتفق، ومع ذلك اصطحبته إلى أمريكا) [xxxiii]

ان ما يُلحظ في شخصية عزام العبد الله أن الدور الأكبر والفعال في تنميتها يكون للوالد، فكُلّما سعى الوالد إلى كبته والهيمنة عليه كُلمّا ازداد تمسكاً بحلمه ، ربما كان سبب عدم الانسجام بين الاثنين هو بعد عواد العبد الله عن عائلته وانشغاله بالعمل ، فهو يرى أن الحياة عبارة عن العمل وجمع المال فقط ولا مكان للعواطف هناك ، والأب يؤمن متطلبات الحياة لأسرته لكنه يبقيهم تحت وصايته، كما يبدو من الحوار بين الأم وابنتها : (لماذا لا يرسل أبي المال طالما أنه يعمل في جزر النخيل

-أبوك أوصى صاحب الدكان أن نأخذ منه الشاي والسكر والخبز أليس أمراً جيداً؟

-لا يا أمي والدي بخيل)[xxxiv]

فالمال وسيلة تحقيق الحرية ، لأن مالك المال لا يحتاج إلى أحد وتتكرر هذه الصورة في جزر النخيل حينما يقدم الوالد طعاما لابنه : (-هل أكلت؟

-لم أستطع أن آكل في الطائرة

أخرج بعض الطماطم المطبوخة ورغيف خبز:

-كلْ كلْ لو أكلت في الطائرة أما كان أفضل لك؟)[xxxv] وفي مشهد آخر:

(وضع والدي الخيار والبندورة لنأكل، كان دائماً يردد على مسامعي:

-كلْ مع أنك لا تستحق

لكن معتوقاً كان يتناول طعامه بجانبنا، نظر إلى طعامنا المتواضع وأشار لي أن أشاركه طعامه قائلاً لو ظللت على طعام أبيك لمدة شهر لمتّ.)[xxxvi]

وتسهم حادثة ضرب عزام من قبل والده في إحداث تحول في مسار حياته كما تنبأ له (ربما كانت هذه الحادثة السبب الذي سيخلصني من رفقة والدي ومن صوت الحفارة المزعج)[xxxvii]

تبدأ مرحلة الانطلاق الفعلي لـ عزام العبد الله بانفصاله عن والده في السكن والعمل على السواء، فالسكن الخاص به بعيداً عن والده يشير إلى تحرره من السلطة الأبوية التي ظلت تراقبه في كل صغيرة وكبيرة يقوم بها ، وتؤنبه على أتفه التصرفات أو الكلمات التي يتفوه بها، فكان هذا التحرر مدعاة سعادة حقيقية واحساساً باقتراب تحقيق الحلم وبالأخص أنه سوف يقبض مرتباً جيداً.

(سيخصصون لي سكناً خاصاً ضمن سكن الموظفين، سأكون في عاصمة الجزر، لا في الجرود، لن أسمع دوي الحفارة بعد اليوم، سيمنحونني ضعف راتبي، وعدوني أن يضاعفوه في حال ثبتت جدارتي)[xxviii] في لحظة الانفصال هذه أعرب الوالد عن خوفه على ابنه ، ربما لأنه أدرك أنه سيسلك طريقاً شائكاً ، فعنفوانه تقوده إلى التعبير عن آرائه بجرأة ومناقشة أمور تفضّل السلطة أن يُسكت عنها، هنا يودع الوالد ابنه (فوقف يلوح لي بيده، ويقول:

-الله يكون معك.. أشعر أنك ذاهب لترمي بنفسك إلى النار.. لا أدري لماذا..

أما أنا فكنت سعيداً جداً، شعرت أن جسدي مطرٌ يبصر البرعم قبل أن يتفتح فيه. وجدت الحياة وسط هذا الموت)[xxix] فالعمل في الحفارة لم يكن الحلم الذي سعى إليه عزام العبد الله لكنه خطوة تقربه من تحقيق حلمه، وإن كان عمله هناك موت فإن الحياة كامنة فيه لا محالة، والانسان (يمكنه احتمال الألم البدني والمتاعب بسهولة اذا صاحبها نجاح في مشروع يرعاه..وقد يبتسم الانسان للموت نفسه اذا اقترن بمغامرة كبيرة) [xl] أشعر هذا التغيير في السكن عزاماً أن الأبواب فتحت له ليدخل منها إلى مبتغاه (حين استلمت شقتي سبحت في عالم من الأحلام.. يا أم عزام ابنك شرع بتحقيق حلمك.. ابنك سيصبح قادراً على إرسال المال لك)[xli] يشير الإنفصال عن سلطة الأب إلى الاقتراب من كل ما هو روحي باستخدام المادة نفسها (تذكرت حين كانت أمي تضغط على يدي وتشجعني:

-أريد أن أراك وزيراً

أخذت إسوارة من معصمها، ووضعتها في يدي، وطالبتني بأن أصرف منها لئلا أحتاج أحداً)[xlii] على النقيض من الأب ، الأم تعطي مالاً لابنها وتساعده على تنميته بالأ يحتاج أحداً. والابن سيعيد المعروف إلى أمه ويحررها بدوره في وعده بأنه سيرسل لها مالاً.

الذات

تقوم علاقة الرجل بالمرأة بصورة عامة على أنواع متعددة من الحب، الحب الأخوي، الحب الأمومي، الحب الشبقي، حب الذات ، حب الله) ، وفي هذا المضمار ينفي اريك فروم وجود شيء اسمه الحب، فهي ليست مادة قابلة للامتلاك أو الاقتناء، لذا ف (لاوجود إلا لفعل المحبة. وهذا يعني نشاطا ايجابياً مثمراً، يتضمن أن تكون العلاقة بالمحبوب رعاية ومعرفة ، وتجاوبا وفرحة ومسرة ومتعة... إن المحبة صيرورة، عملية تجديد وإثراء الذات)[xliii] ومن خلال تصفح الرواية يقف القاريء على علاقات حب متعددة عند عزام العبد الله ، فهو محبوب من قبل المرأة منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره وصولاً الى خريف العمر

تنقسم علاقات عزام العبد الله بالمرأة إلى أنواع متعددة تفسّر تطور الوعي لديه ، فقد بدأ علاقاته الأوليه مع كل من سعاد ولمياء وكانتا من سوريا ، وميري البريطانية التي تعرف عليها في مملكة جزر النخيل على التوالي ، لكنه لم يشأ الارتباط آنذاك (كنت متعالياً على النساء، كنت انظر إلى الشمس دائماً، وأبحث عن مكان عليها)[xliv] ولم يكن البقاء في سوريا يريحه (كنت أشعر بضياع بسبب الواقع والطموح)[xlv] وهو لم يرفض حبهن لكنه لم يكن مستعداً للزواج ، إذ يؤكد (لكن حلمي بالشمس كان أقوى من الحب)[xlvi] وبعد محاولات عدة للحصول على الفيزا، ينجح ويستعد للسفر، وفي الوقت نفسه جهّز أمور والدته لتسافر إلى أخيها في البرازيل ، بعدما اشترى لها ثياباً مدنية ووضع أساور ذهبية في معصمها ، إذ كانت قد شكت إليه في حزن أن زوجها قد نزع أساورها من معصمها ، كما وعدها بأن يعيد إليها كل شيء. وربما كان هذا الوعد يضمن حلم عودة مرحلة السلطة الامومية.

يمكن وصف هذا النوع من الحب بأنه ذاتي فقد كان عزام محبوباً من المرأة أكثر من كونه محباً لها ، فـ(حب الانسان وفهمه لنفسه لا يمكن أن ينفصلا عن احترام الانسان وحبه وفهمه لفرد آخر)[xlvii] وفي تقديرنا لا يمكن عد هذا الحب أنانية .

الحب الأخوي

هناك نوع من الحب خالٍ من الاستثناء ، وهو الحب الأخوي القائم على التضامن الانساني ، قد يبدو هذا النوع من العلاقة أنها قائمة بين عاجز وقوي (ومع هذا فان حب الانسان العاجز أو اليائس ، حب الفقير والغريب ، هما بداية الحب الأخوي)[xlviii] والجميع في هذه الحال متشابهون ، يمثل هذا النوع من الحب علاقة عزام العبد الله ب رائدة وأمها وكذلك حمدان المطروحي وزوجته ام جاسر، وقد (تحول هؤلاء الأفراد إلى عائلتي الجديدة في غربتي)[xlix] حتى أنه قد جرح إصبعه ووضعها على إصبع أم جاسر في إشارة إلى أنها أصبحت أخته. يقول مور : (لما كانت المدينة تتكون من أسر، فالأسرة تتكون من أولئك الذين تربط بينهم

رابطة الدم)[l] وكان قد تعرف على رائدة ووالدتها المعاقة في المطار عند توجهه إلى أمريكا و قدم لهما المساعدة، وفي الطائرة تحاور مع رائدة وأخبرها أنه مسافر لأول مرة إلى بنسلفانيا ولا يعرف أين يذهب ، فطمأنته وأخبرته أنه برعايتها[li] بينما تعرف على حمدان المطروحي في أول يوم له في الجامعة وساعده في دفع قسط سكن الطلاب، وقد اعتنى عزام العبد الله بعائلته في غيابه وتنازل له عن منصب رئيس اتحاد الطلبة[lii] فكان قضاء الحاجات متبادلاً بين الأطراف (وبفضل هذا الطابع الغيري يعد الحب الأخوي أسمى نوع من الحب وأشد جميع الروابط العاطفية قدسية)[liii]

الحب الجنسي (النفعي)

تعّرف عزام العبد الله إلى هيلين الامريكية وكانت طالبة في كلية الطب، دخل في علاقة معها وكانت عذراء، وكان هدفه منها هو تعلم اللغة ومن ثم الحصول على الإقامة ، لقد كانت هيلين تحبه بصدق وتساعده ، بيد أنه أساء إليها على الرغم من روعتها فهو يقول:(كنت أشعر أني فراشة يجب أن تحط كل يوم على زهرة)[liv] لهذا خانها مع إحداهن بعد مدة قصيرة من الزواج ، والتعرف على المرأة هو الحب المنعكس الذي يسعى إلى الخروج من اطار الحياة الفردية ، ومغادرة سجن العزلة ، والتغلب على الخوف من الوجود الفردي المنعزل[lv]. لم يستسلم عزام العبد الله لواقع وجوده في بنسلفانيا على الرغم من تحذير صديقه السعودي حمدان المطروحي، إلا أن إجابته كانت (ان حلمي دراسة الصحافة والاعلام في هوليوود، وكاليفورنيا أم الاعلام)[lvi]

تعرف عزام العبد الله في احدى الملاهي الليلية في كاليفورنيا على روث وكانت امريكية تدرس المحاماة، حينما علمت زوجته هيلين بذلك وتبيّن لها أنه تزوّج منها بناءً على مصلحته تقدمت بشكوى ضده وطالبت بالطلاق، وهو ماسيطرده بعيداً عن موطن تحقيق الأحلام ، لذا سارع بايجاد مخرج لمشكلته وكسر هذا العائق الذي يمكن أن يحول دون تحقيق حلمه، ورتّب أموره من أجل الزواج من دينيس وكانت طالبة في كلية الطب لكنها تعرضت إلى حادث وماتت إثر ذلك .

في هذه الأثناء تدخلت روث وأبدت استعدادها لمساعدته والزواج به بشرط الحصول على الطلاق بعد حل المشكلة ، ولم يرتح عزام العبد الله في هذه العلاقة لأنها كانت مشروطة بإيفاء كل ماهو دَين ، وهو يراها متسلطة ومحبِطة وأنها تستغله ، وفي هذا تمثل روث المجتمع الرأسمالي الغربي في حبها للسيطرة والتملك حيث (تتحول الأشياء النافعة والطاقة الانسانية النافعة والمهارة الانسانية النافعة إلى سلع يتم مقايضتها بدون استخدام القوة وبدون خداع وفق شروط السوق)[lvii].

على الرغم من الإتفاق المنعقد وقت الزواج إلا أن روث تغيير رأيها وترفض الطلاق، إذ يبدو عزام العبد الله أنموذجاً للزوج المناسب ، في تمكّنه من عمله وجمع ثروة طائلة في وقت قصير ، في حين أن طبيعة عزام العبد الله ترفض القيود وتسعى إلى التحرر من السلطة بكافة أنواعها. لذا أخبرها برغبته في الانفصال وحينها قايضته (عندك ثلاثة حلول: إما أن تبقى معي، أو تعطيني 80% من أملاكك، أو أسفّرك خارج الأراضي الأمريكية.

-لكنك يا روث أنقذتني من التسفير، أكملي معروفك معي

لكنها كانت شرسة، لم توافق على طلبي، فتم الاتفاق بيننا بأن تأخذ 80% من أملاكي)[lviii] .

وعلى الرغم من أنها أخذت كل شيء إلا أنها لم تتركه ليعيش بسلام (ذات يوم أتت روث تريد حصتها من عملي:

-ماذا تريدين مني بعد أن أخذت كل شيء يا روث

-أنا التي صنعتك ولي حصة فيك

-كيف؟

-أريد نصف عقلك)[lix]

هذه المحاورة فيها تصريح واضح عن النظرة التشيئية من قبل روث عن عزام العبد الله وقد أحالته إلى سلعة اشترته ويحق لها الاستفادة منه، فهي تمتلكه لانها ساعدته على الوصول إلى ما هو عليه من ثراء في عمل العقارات، وفي الرأسمالية (يستطيع صاحب رأس المال أن يشتري العامل وأن يأمره بالشغل من أجل الاستثمار المربح لرأسماله)[lx] ومن هنا تطالب روث بنصف أرباح عزام العبد الله في كل مرة لأنها ملكته ، وهي التي صنعته. يمكن وصف علاقة عزام العبد الله بكل من هيلين وروث ونساء أخريات دخل في علاقة معهن حباً جنسياً نفعياً فـ (الرغبة الجنسية يمكن أن تختلط بسهولة ويبعثها أي انفعال قوي وليس الحب إلا

انفعالا من هذه الانفعالات)[lxi] ويمكن وصف العلاقة بين عزام العبد الله وجولي المقدسي ايضاً ضمن هذا النوع ، مع اختلاف ما ، إذ المبادرة كانت من جولي وقابلها رفض من قبل عزام العبد الله ، فهددت بالانتقام منه ، فاظهرت له وجه المرأة المنتقمة بشرها فاوقعته في مشاكل كثيرة وتسببت في سجنه[lxii].

حب البقاء والاستمرار

في مقابل علاقتي زواج فاشلتين بامرأتين أمريكيتين احداهن أحبته لكنه لم يقدّر قيمتها والأخرى استغلته وسلبته أمواله ، دخل عزام العبد الله وتحت الحاح امه في إنجاب الولد في علاقتي زواج فاشلتين بامرأتين سوريتين مريم الطبيبة التي تزوجت به عنوة لأنه كان يرفضها ، أنجبت له بنتاً ولم تتركه يراها ابداً ، طلقها لأنها كانت تقطع عنه الاكسجين[lxiii] ، وفريال اليتيمة الفقيرة ، أوهمته أنه الأول في حياتها ليُصدم بعد ذلك بالعكس ، أنجبت له بنتاً أيضاً طلقها لانه لم يتحمل خداعها له.[lxiv] لم تقم هاتين العلاقتين على أي نوع من أنواع الحب ، فقد كان زواجاً تقليدياً ، وكانتا فاقدتي العذرية، وربما دلّ ذلك على عدم تطبيق فكرة الأمومة عليهن ، وإن كان الهدف من الزواج هو الإنجاب بشكل مباشر. هذا إن جاز لنا أن نربط بين فقدان العذرية وبين العذراء في المسيحية وهي ترمز إلى الأم[lxv]. ويبدو من عدم انجاب عزام العبد الله لابن ذكر رفض صميمي لفكرة السلطة الأبوية وتفضيله السلطة الامومية.

الحب الأمومي

تبدو أبرز علاقة للحب بناها عزام العبد الله هي علاقته بكل من مارلا الممرضة الامريكية وأمل الطبيبة على التوالي ، فكانت علاقته بهن قائمة على اللا محدودية في الحب والعطاء غير المشروط من قبلهن ، وهو ما يعرف بالحب الأمومي وفيه يتم تأكيد الحياة في جانبين ، (جانب هو الرعاية والمسؤلية الضروريان بشكل مطلق للحفاظ على حياة الطفل ونموه . والجانب الآخر يذهب إلى أبعد من مجرد الحفاظ على الحياة . ان الموقف الذي غرس في الطفل حبا للحياة) [lxvi]، ربما مثل حب مارلا الجانب الأول فقط ، فحبها الأمومي عاجز لأنها لا تتقبل الانفصال، لذا تحول الحب عندها إلى كراهية حادة أدخلت عزاماً في دوامة من المشاكل وسلبته ماله وسجنته لكنها في النهاية ماتت بعد أن علمت بوصوله بالسلامة ، وقد بكاها عزام العبد الله بشدة حينما توفيت نتيجة اصابتها بسرطان الثدي[lxvii] بينما انتهت علاقته بأمل بالانسحاب الطوعي من قبلها بعد أن أتمت رسالتها وأنهت مهمتها في حياته، وهي لاتزال صديقته التي لن ينساها[lxviii] ويمثل حب أمل الجانب الثاني وهو غرس حب الحياة، فحب أمل هو حب أمومي مثالي اعطى كل شيء ولم ترغب في شيء سوى سعادة محبوبها، ومحك العلاقة بين الإثنتين هو الإرادة في تحمّل الانفصال واستمرار المحبة بعد ذلك.[lxix] يبدو أن موت مارلا في النهاية وبقاء أمل صديقة هو التطور الذي وصل إليه عزام العبد الله في خريف عمره ، وهو أن النمو الطبيعي للإنسان يتم بمعاونة الأم التي تساعده على الإنفصال (أمسكي بقلبي، لا بيدي... ولنمض معاً إلى الشمس)[lxx].إذ (ان الماهية القصوى للحب الأمومي هي العناية بنمو الطفل وهذا يعني الرغبة في انفصال الطفل عنها)[lxxi]

البحث عن الخلاص

ان الانسان يميل الى المعارضة والمخالفة ولا يتكيف بسهولة مع العالم الموضوعي ، فهو يكون رافضاً للعبودية وميالاً إلى الحرية ، ونتيجة للتحولات التي يشهدها في الواقع والوعي لديه ، تنتشر النزعة النقدية التمردية في كتاباته وتتكون لديه نزعات المواجهة والتساؤلية والاستكشافية للدخول في حوار متوتر مع الذات والآخر والمجتمع[lxxii]. والدولة تكون قاسية وهي لا ترحم في فرض العقوبات على الناس ووضعهم في السجون. والسجن نوع من الفضاء المغلق المقطوع عن متعة الحلم والمتصل بالواقع المراقب من جوانبه كلها، حيث يُحشر الافراد ومن ضمنهم عزام العبد الله ضمن مكان ثابت ، فتراقب كل حركة ، ويسجل كل حدث ، وكل فرد معاين ومفحوص وموزع بين الاحياء والمرضى والأموات ، كل ذلك يُشكّل أنموذجا كثيفا في الجهاز الانضباطي[lxxiii]. ويتخذ المحاصرة في السجن بُعد المنع الفكري وذلك باجتثاث صاحبه من الكلمة الجريئة والثورة ، وسجنه كي يتوقف عن اسهامه

وانخراطه في الحزب المعارض للدولة[lxxiv]. ويساق عزام عبد الله الى فضاء السجن المغلق مرات عدة فالكلمة الجريئة والثورة على الحالة المتردية طريق الى السجن.

في مملكة جزر النخيل يعاني عزام العبد الله من القلق (ومن الممكن أن يشير القلق الى تجربة دينية، والقلق الديني يتضمن شوقاً الى الخلود والحياة الابدية)[lxxv] فهو يستحضر صورة أمه ويربطها بالأرض في العطاء والاخضرار ويقارن تلك الصورة بواقع والده في توجيهه وتعليمه قوانين الحياة ، و يتراوح بذلك بين متعة الحلم بسلام مطلق وصدمة الواقع المتسم بالشقاء والمطالبة بالالتزام والطاعة ، الحلم والسرد هما تعبير عن انفعالات داخلية واحضار لترسبات اللاوعي ومشاحناته مع الوعي ، وحينما لا ينسجم الانسان مع العالم الذي يعيش فيه تثار لديه استجابة لها وجهان ، وجه ينبعث من الداخل الى الخارج ، والآخر يتقدم من الخارج الى الداخل[lxxvi] وربما كان السجن رمزا لصراع الإنسان الروحي ، وبحثه عن معرفة الله الذي هو الحق ، وما يوثّق هذا المفهوم الخطوة التي أقدم عليها وهو في السجن حين أكل الصابون في الحمام[lxxvii] وفي ذلك إشارة إلى تنقية روحه من الآثام (في الزنزانة تعرفت إلى الله للمرة الأولى في حياتي، كنت ملحداً، لم أؤمن به من قبل، لكني كنت كل يوم أتخيل صورة ملائكة النور، وأصلي من كل قلبي، وأناجي الرب متضرعاً إليه أن يخلصني، وذات يوم وأنا مستغرق في حالة إيماني شعرت أن شخصاً يرتدي ثوباً أبيض ويضع التاج على رأسه والنور يشع منه اقترب مني وخاطبني قائلاً لي:

-سأخلصك.. ولن أتركك تسقط، إن وصلت إلى الحضيض انتشلتك، قلت له من أنت؟ فسمعت صوته يقول إنه رجل النور، شعرت بهزة تنتاب ذرات جسدي، ووعدته أن أبتعد عن الخوض في مشكلات السياسة، فقال لي: -ستخرج في اليوم الثاني من شهر شباط الساعة الحادية عشرة من هذا العام ألف وتسعمئة وثمانية وسبعين يوم الاثنين، واختفى)[lxxviii].

قد يشير هذا الحدث إلى مرحلة في تطور الإنسانية ، وجانبي الامومية والابوية للدين ، فالجانب الامومي يمثل المسامحة والانقاذ وهذا ما وعد به رجل النور عزاماً ، فالام (مهما يحدث لي سوف تنقذني ، سوف تنتشلني ، سوف تسامحني . ولا حاجة الى القول بأن حبي لله وحب الله لي لا يمكن أن ينفصلا . اذا كان الله أبا ، فانه يحبني كابن ، وأنا أحبه كأب . واذا كان الله أما ، فان حبها وحبي يتحددان بهذه الحقيقة)[lxxix] لكن خروجه من السجن لم يكتمل إلا بعد أن تاب إلى الملك وهو رمز السلطة السياسية (تبت إلى الله والآن أتوب لكم... وأقسم إني لن أعود يوماً للعمل في السياسة) [lxxx] فالدولة في سلطتها صنم كلّما سجدت له زادت عطاياه ؛ ولكن بالمقابل فان الانسان سيفقد عزته وكرامته بهذا الخضوع ويتنازل عن رغباته من اجل تحقيق رغبات السلطة ، وبهذا نجا عزام العبد الله من عقوبة الإعدام . ومنذ لحظة تعرفه إلى الله لم يفارقه رجل النور في أوقاته الصعبة ، (حين كنت في زنزانتي كانوا يمنحونني ساعة لكي أسير بين الزنزانات المنفردة، سمعت صوت أحدهم يناديني من زنزانته المنفردة:

-تعال يا بني تعال

-من أنت؟

-أنا كاهن

-في الزنزانة؟

لا تكترث، خذ هذا الإنجيل سيحميك

كان شكله أسمر، يرتدي ثياباً سوداء، نظرت إلى الإنجيل وقلت له:

- إنه صغير، تصعب قراءته

- لا تكترث دعه يرافقك إلى أي مكان تذهب إليه، سوف يحميك)[lxxxi] كاهن في زنزانة يرمز إلى تغلغل الدين في العقل البشري وأثره في الوعي لديه ، فالكاهن معلم ومرشد وناصح ومصغ ، ورسالته هي الدعوة الى خلق جماعة مسيحية حميمة [lxxxii] وهو يدعو عزاماً بان لا يفارق الله أبداً فهو ناجيه ، وهو ما يرمز إليه الانجيل . بعد خروجه من السجن عاش عزام العبد الله في أجواء من القلق والرعب خوفاً من الزج به في السجن مرة أخرى ، جاءه المنقذ مرة أخرى فقد (كان مطران يسكن بجانبي يدعى كوكس، شعر أني أمر بحال غير طبيعية، زارني وسألني عن سبب هزالي، قلت له:

- إني خائف، وأخشى أن تأخذ أنت أيضاً فكرة غير جيدة عني.)[lxxxiii] عودة أخرى الى الألهة الأم ، في معنى كلمة مطران (المشتقة من اليونانية (متروبوليتيس) والتي تتكون من مقطعين (مترو: الام – بوليتيس: مدينة) فيكون معناها (صاحب المدينة الام او

الكبيرة)[xxxiv] يبدو مما سبق أن فكر عزام العبد الله يميل إلى الالهة الأم وليس الاله الأب ، (فالجانب الأبوي يجعلني أحب الله كأب ، انني افترض أنه عادل وصارم وأنه يعاقب ويكافيء) [xxxv]وربما كان حلم الوصول الى الشمس رمزا لمدينة تحكمها سلطة الأم . طبيعة هذه المدينة هي ارضاء سلطة الفرد واختزال سلطة الدولة من اجل تحرير الفرد فالانسان لا يظهر الا حين تنتهي حدود الدولة (هناك حيث تنتهي الدولة انظروا الى هنالك اذا يا اخوتي، الا ترون قوس قزح وجسر الانسان الاعلى)[xxxvi]

المشروع الانساني

بعد انتقال الدين من المرحلة الأمومية إلى المرحلة الأبوية لم يقف على حاله وإنما استمر التطور داخل المرحلة نفسها ، ففي البداية هناك إله يُعاقِب فيطرد الانسان من الجنة ، ثم يدمّر الجنس البشري بالطوفان لخروجه عن طاعته باستثناء نوح المتمثل لأوامره، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة يعقد فيها الله ميثاقاً مع نوح ويعده بعدم تدمير الجنس البشري مرة أخرى ، ويتقيد فيه بمبدئه وهو العدل ، والتطور يستمر إلى أن يتحول شخص الأب إلى رمز لمبادئه ، وهو العدل والحق والحب[xxxvii] ومن هنا يتحرر الإنسان من فكرة أن الله أب ، وأنه شخص. فالدين له دور كبير في مجتمع يسن قوانين حياته منه ، وقد التفت الروائي عن طريق تقنيتي الاسترجاع والاستباق إلى ربط الشام بالدين ، فموقع الشخصية وحجمها يتحدد بعلاقتها بالدين سواء اكان ذلك في حال القبول أم الرفض أم التمرد ، وقد حاول السرد وصل بلاد الشام ببعضها البعض عن طريق رمز المسيح الغائب عن الوطن إذ تناديه الشام صارخة،

(كيف نضمِّدُ والمسيحُ غائبٌ؟
والشامُ تصرخُ في ليلِ السواد...
يا شامُ يا بلداً قُطِفَ من الدهرِ
إن لم تكوني وطني
أحتاجُ كم وطناً؟
كم حلماً؟
كم أمّاً لصدري؟)[xxxviii]

فالمسيح ينتمي الى كل ذرة من ذرات بلاد الشام ، ونجحت الرواية في التعبير عن الوعي الجمعي المتراكم عبر العصور وهو وعي مشحون بالاتصال .

والرّواية مشدودة من بدايتها إلى نهايتها إلى خيط الانسانية الحقيقية ، ذي الالتواءات والتعاريج والارتماءات المتوقّعة و اللاّمتوقعة ، صوب الأمام وإلى الوراء ، فالتذكر والحلم أنموذجان لكتابة رواية السيرة الذاتية ، قد شُيدت عالمها ومرجعها على أرضية الواقع المعيش الحيّ ، فكان الوصف فيها حيّا بأصداء ذلك الواقع طافحا بمآسيه الاجتماعية وقضاياه الرّاهنة والرواية انتاج للثقافة وفي منهج انتاج الثقافة لا يمكن الوقوف على الاسباب الحقيقية للتغير الثقافي أو الى الركود الثقافي إلاّ بالنظر إلى تفاصيل سياقات انتجت الثقافة . و السرد محور يدور حوله وجود الانسان بتمظهرات متداولة تعبّر عن نُظم معرفية وقيمية تمنح الذات تأصلاً في مكانها وتجذرا في أزمنة متخالفة وان بدت متشظية [xxxix].

يرى ماركس أن المجتمع هو الذي ينتج الثقافة وليست الثقافة هي المسؤولة عن انتاج المجتمع وعبّر عن هذا الموقف بقوله : (ان وعي الناس ليس بالضرورة أن يشكل وجودهم الاجتماعي وإنما العكس، بمعنى أن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم)[xc] و العامل الإبداعي ليس هو الأساس في تحديد مستويات الابداع وانما هو البنية الإدارية من وجهة نظر الثقافة باعتبارها صناعة ، فإن هذا مثال آخر على القوى التي تروض الثقافة المضادة عن طريق تغليفها وتحويلها الى سلعة ومن ثم اعادة بيعها الى الفئة الشابة باسلوب آمن وحيادي سياسياً [xci] و هوليوود هو مركز انتاج الاحلام الذي يسعى إليه عزام العبد الله من أجل الوصول الى الشمس ، فالغرب يصدِّر الاحلام عن طريق انتاجه وتسويقه الى الشرق عن طريق الاعلام والسينما وبذلك يصدر ثقافته الاستعمارية كسلع لخدمة اغراضه الخاصة ، من أجل احباط كل مشروع يسعى للنهضة والتقدم في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية. لذا أراد عزام العبد الله ان يكون متخرجاً من هوليوود كي يتمكن من ايصال افكاره واحلامه الى الآخرين.

إذ يؤمن عزام عبداالله بحرية الفكر والمعتقد ويترنم بعبارات نيلسون مانديلا التي يجعل حرية الانسانية من حرية فلسطين (نحن نعلم أن حريتنا ناقصة من دون حرية الفلسطينيين..... لا يوجد إنسان وُلد ليكره إنساناً آخر بسبب لون بشرته، أو أصله أو دينه، وإذا كان في الإمكان تعليمهم الكراهية ففي إمكاننا تعليمهم الحب خاصة أن الحب أقرب لقلب الإنسان من الكراهية.... الشجاع ليس هو الشخص الذي لا يشعر بالخوف، بل هو الشخص الذي ينتصر على مخاوفه..)[xcii] ويصطدم بواقع التمييز العنصري في جنوب افريقيا حين أراد كتابة مشروع بحثه ففي الشرق سُلب الفلسطيني أرضه وحقه في تقرير المصير ، وفي الغرب أشد ما تؤلم الانسانية مظاهر التمييز العنصري ضد الزنوج الذين تعرضوا لألوان شق من التفرقة والاضطهاد، فجنوب افريقيا هي الدولة الوحيدة التي تتبنى عدم المساواة بين رعاياها ، ولا تعترف بأية وثيقة دولية خاصة بحماية حقوق الانسان (بأي منطق يقسمون السكان إلى بيض منحدرين من أصل أوربي، وآسيويين وملونين من أصول مختلطة؟ فوجئت أن هذا التصنيف يحدّد لكل فئة أين تعيش، ونوع العمل الذي يمكن أن تقوم به، ونوع التعليم، ومن الذي يمكن لهم أن يتزوجوا به. كيف يمكن أن يكون هنالك معازل إفريقية لا تحتوي على موارد اقتصادية ملائمة، في حين تضم المنطقة البيضاء جميع المدن الكبرى والموانئ والمطارات ومناجم الذهب والألماس؟)[xciii]

و الحلم الأساس والأول عند عزام العبد الله هو أن يصبح مخرجاً متخرجاً من هوليوود ، فيختار في مشروع تخرجه موضوعاً جريئاً لينشره في الصحافة العالمية ، لذا حاول أن يعد فيلماً وثائقياً عن انتهاكات نظام الأبارتايد العنصري ضد السود في افريقيا ليكون موضوع تخرجه في جامعة كاليفورنيا.

دخل الى افريقيا متظاهراً بمظهر السائح فصّور تقييد حركة الافارقة ومنظرهم وهم يُجبرون على عمل بعينه وأماكن اقامتهم وتحريم استخدام وسائل النقل المخصصة للبيض لديه...لكنه لم يتمكن من اصطحاب الكاميرا والافلام الى امريكا لانهم جردوه في المطار حينما عرفوا انه من اصول عربية ، ولولا جنسيته الامريكية لما سمحوا له بالمغادرة ، هكذا يفشل في اخراج فلمه الوثائقي (فعدت إلى أمريكا بعد عشرين يوماً خاسراً المغامرة، وخاسراً تحقيق سبق صحفي متميز)[xciv]. وهذا انكسار آخر لحلم الانسانية ، لكن عزاماً لم يستسلم فقد بدأ بالبحث عن طريقة يواصل فيها مشروع حلمه ويحقق فيه الهدف الانساني الذي أراده في مشروعه الأول حينما لجأ إلى افريقيا ، فوقع اختياره على شخصية متميزة في الطب وهو دكتور ديز ، اشهر جراح للمخ في امريكا ، وقد تخطى في حياته كل العثرات إلى أن وصل إلى القمة في عمله وحقق وجوده في أمريكا[xcv]

قد تلحظ خيوط مشتركة بين حياة الدكتور ديز التي حولها عزام العبد الله الى فلم وثائقي وحياته هو شخصياً ، في رحلته الكفاحية والعثرات التي أعاقته وانتصر عليها في كل مرة ، وصولا إلى اتجاهه الانساني. فقد كان عزام العبد الله ضحية لأفكاره التي عبّر عنها بقلمه وزُجّ به في السجن حينما كان في مملكة جزر النخيل ، وقد شهد العالم العربي في القرن العشرين موجات واسعة من القمع وعمليات الدهم والاعتقال بحيث زُج آلاف السياسيين وجلّهم من المثقفين والمفكرين والادباء في السجون بحيث غصّت السجون العربية بسجناء الرأي والكلمة والمعتقد، وشيوع ظاهرة القمع سببه انعدام الأجواء الديمقراطية التي تضمن حقوق الافراد والجماعات والكيانات في ممارسة نشاطاتهم السياسية والثقافية والفكرية ضمن الأطر التي تكفلها الدساتير ، وتحددها القوانين والأعراف المنبثقة عن سياقات وأنظمة حضارية تحترم حقوق الانسان ، وتصون كرامته وتضمن حرياته الشخصية [xcvi]

بزغ نور البنيه الفكرية لدى عزام العبد الله من حزمة مفاتيح يفك بها متعة المكان الذي يحتضنه على الشمس والمفتاح الاول هو كتاب رأس المال لكارل ماركس وقد أهداه إياه (أحد الرجال المثقفين في بلدته وطلب منه قراءته في يوم واحد ومناقشة أفكاره) والمفتاح الثاني لبنائه الايديولوجي مطالعاته في كتب الشيوعيين (كنت شديد الولع بالمطالعة، كنت أقرأ للشيوعيين وكتب رأس المال، وكنت شبه منظّم في الحزب الشيوعي في سورية، كانوا حينها يفرضون علينا أن نقرأ لكي نكون مثقفين أكثر من البعثيين، فكانت حواراتي، وسجالاتي متميزة،) والمفتاح الثالث هو كتابة المقالات وامتهان عمل المراسل الصحفي (كتبت أول مقال في حياتي حين اندلعت حرب تشرين في صحيفة الثورة وكنت مراسلاً للصحيفة في مدينتي) [xcvii] من هذه المفاتيح خرق صدمة الواقع بمنح الشخصية الحرية في عملية السرد. وتستجيب هذه الرواية لاغراء تيار الوعي عبر معبرين أساسين وهو قصر الرواية على شخصية عزام العبد الله تسرد لنفسها وسواها وكل ما يخطر لها بوساطة ضمير (الأنا) ، والمعبر الثاني تطعيم الرواية بأفق

الاسطورة والشعر والمقالات [xcviii]. يتأرجح صراع الانسان المثقف بين بناء الحلم (الانتصار) وانكسار الحلم (الهزيمة) ويتجسد الصراع بملامحه المتعددة عبر عنصر مكاني (القرية الصغيرة في سوريا ، مملكة جزر النخيل ، نخلة الجنوب ، الاردن ، بيروت ، بنسلفانيا ، كاليفورنيا (هوليوود) ، والمكان مرتبط بالزمن والمرحلة ، والذي يكملهما هو الذات .

الخاتمة

1. أثارت رواية رائحة التفاصيل لـ سليمان الصدّي الوضع الانساني المصدوم ، وصراع الانسان من اجل الحرية ، ويتكأ السارد على فضاء الحلم ليحطم به صنم الواقع المتمثل في السلطة الجبارة للدولة التي تمزّق الروح وتُجرعه المرارة والألم في أسلوب رمزي شيق عن طريق تطور الوعي عند البشر في المراحل التي مرت بها الأديان ، مركزاً على المسيحية ، موزعا أفكاره على شخصياته ذات التنوع العرقي والمزاجي يكثّف من خلالها نظرته إلى الانسانية من زاوية تمتعها بالحرية او خضوعها للعبودية.
2. تكمن بؤرة حلم الوصول الى مملكة الشمس في الرواية في صراع قطبي الذكر و الانثى على السلطة التي تحمل في طياتها الامن والخوف ، العطاء والمنع ، التسامح والعقاب. فيقصي السارد الاب ويعتلي عرش مملكته جيش من النساء ويختزله في قائد واحد يحلم بالامل ويعزم على تحقيق.
3. يرمز تنوع المرأة وتعددها إلى أنواع من الاستلاب وقمع السلطة.
4. وترسم العلاقة بين الرجل والمرأة صورة الصراع الانساني في علاقة غير متساوية بين الرجل نفسه عزام العبد الله والنساء اللواتي أقام علاقة معهن ، وفي ذلك يمثل عزام العبد الله الانسان الساعي الى الحرية والخلاص وتجاوز العزلة في صراع داخلي يمتد به على طول الرواية ، وللاسم نفسه دلالة خاصة في ثالوثيتها (عزام . العبد . الله) فالعزم عقد النية على الفعل بثبات ، والعبد هو الانسان حراً كان أو رقيقاً ، لأنه مربوبٌ لله عزوجل ، والله هو المعبود والخالق في الديانات التوحيدية الثلاثة. فيلخص بذلك عزام العبد الله فكرة سقوط الانسان وعواقب عصيان آدم على البشرية كلها.

---

[i] شاعرية احلام اليقظة:126.

[ii] فن الوجود :61.

[iii] لسان العرب: مادة (وقع) و معجم مقاييس اللغة : 134.

[iv] توظيف الضمائر في السيرة الذاتية – غربة الراعي لاحسان عباس أنموذجا:2.

[v] دراسات في علم الاجتماع العائلي : 22-23.

[vi] فن الحب -:45.

[vii] فن الحب:61.

[viii] رائحة التفاصيل:15.

[ix] رائحة التفاصيل:104.

[x] رائحة التفاصيل:101.

[xi] رائحة التفاصيل:161.

[xii] رائحة التفاصيل : 14.

[xiii] رائحة التفاصيل:14.

[xiv] رائحة التفاصيل:15.

[xv] رائحة التفاصيل:12.

[xvi] النمو النفسي للطفل:256.
[xvii] الشخصية وعملياتها العقلية:72.
[xviii] المجتمع السليم::30.
[xix] جماليات المكان :45.
[xx] الحلم والواقع:55.
[xxi] رائحة التفاصيل:12-13.
[xxii] فن الحب:61.
[xxiii] رائحة التفاصيل:16.
[xxiv] رائحة التفاصيل:20.
[xxv] رائحة التفاصيل:22.
[xxvi] رائحة التفاصيل:24.
[xxvii] رائحة التفاصيل:25.
[xxviii] رائحة التفاصيل:27.
[xxix] رائحة التفاصيل:27.
[xxx] نظرية الأدب : 228.
[xxxi] رائحة التفاصيل :25.
[xxxii] الأدب الملتزم :74-75
[xxxiii] رائحة التفاصيل :246.
[xxxiv] رائحة التفاصيل:16
[xxxv] رائحة التفاصيل:17.
[xxxvi] رائحة التفاصيل:19.
[xxxvii] رائحة التفاصيل:25.
[xxxviii] رائحة التفاصيل: 30.
[xxxix] رائحة التفاصيل:30.
[xl] الانسان ذلك المجهول:346.
[xli] رائحة التفاصيل:32.
[xlii] رائحة التفاصيل:22.
[xliii] الانسان بين الجوهر والمظهر:65.
[xliv] رائحة التفاصيل:108.
[xlv] رائحة التفاصيل:108.
[xlvi] رائحة التفاصيل :113.
[xlvii] فن الحب:56.
[xlviii] فن الحب:48.
[xlix] رائحة التفاصيل:120.
[l] يوتوبيا : 131.
[li] رائحة التفاصيل:116.

[lii] رائحة التفاصيل:123 - 125 .

[liii] فن الحب:50.

[liv] رائحة التفاصيل:126.

[lv] اليوتوبيا والفلسفة :324

[lvi] رائحة التفاصيل:127.

[lvii] فن الحب:77.

[lviii] رائحة التفاصيل:137.

[lix] رائحة التفاصيل:142.

[lx] فن الحب:77.

[lxi] فن الحب:53.

[lxii] رائحة التفاصيل:169-188.

[lxiii] رائحة التفاصيل :162 – 168.

[lxiv] رائحة التفاصيل:224 – 231.

[lxv] فن الحب:61.

[lxvi] فن الحب:49.

[lxvii] رائحة التفاصيل:140 – 208.

[lxviii] رائحة التفاصيل:183 – 233.

[lxix] فن الحب:49 – 51.

[lxx] رائحة التفاصيل:252.

[lxxi] فن الحب:51 .

[lxxii] الاغتراب في الثقافة العربية – متاهات الانسان بين الحلم والواقع:179.

[lxxiii] المراقبة والمعاقبة : ولادة السجن :206.

[lxxiv] شعر السجون في الادب العربي الحديث والمعاصر:300.

[lxxv] الحلم والواقع:56.

[lxxvi] الحلم والواقع:67

[lxxvii] رائحة التفاصيل:74.

[lxxviii] رائحة التفاصيل:76.

[lxxix] فن الحب :62.

[lxxx] رائحة التفاصيل:87.

[lxxxi] رائحة التفاصيل:192.

[lxxxii] الكاهن ضروري لحياة الكنيسة: ويب

[lxxxiii] رائحة التفاصيل :178.

[lxxxiv] ويكيبيديا الموسوعة الحرة : ويب

[lxxxv] فن الحب:62

[lxxxvi] هكذا تكلم زرادشت : 106.

[lxxxvii] فن الحب:63.

[lxxxviii] رائحة التفاصيل:215-216.

[lxxxix] بول ريكور الهوية والسرد :78.

[xc] ما هو الوعي : ويب

[xci] مدخل الى سوسيولوجيا الثقافة :289 .

[xcii] رائحة التفاصيل:152.

[xciii] رائحة التفاصيل :152-153.

[xciv] رائحة التفاصيل:152.

[xcv] رائحة التفاصيل:155-157.

[xcvi] أدب السجون خلال سنوات الحكم الدكتاتوري في العراق - دراسة نقدية تطبيقية :57.

[xcvii] رائحة التفاصيل :12.

[xcviii] سرد الآخر .. الأنا والأخر عبر اللغة السردية : 72.

مصادر البحث ومراجعه

1. أدب السجون خلال سنوات الحكم الدكتاتوري في العراق (دراسة نقدية تطبيقية) 1963 – 2003 ، عدنان حسين احمد ، دار الحكمة ،لندن – المركز الثقاف العراقي ،ط ، 2014 .

2.الأدب الملتزم ، جان بول سارتر ، ترجمة جورج طرابيشي ، منشورات دار الآداب ، بيروت ،ط1، 1965.

3.الاغتراب في الثقافة العربية ، متاهات الانسان بين الحلم والواقع، د.حليم بركات ، مركز دراسات الوحده العربية ، بيروت ، ط1، 2006.

4.الانسان بين الجوهر والمظهر ، اريك فروم ، ترجمة سعد زهران ، مراجعة وتقديم لطفي فطيم، عالم المعرفة ، الكويت ، 1989.

5.الانسان ذلك المجهول ، الكسيس كاريل ، تعريب شفيق اسعد فريد، مكتبة المعارف ، بيروت،ط3 ، 1980 .

6.بول ريكور الهوية و السرد ، حاتم الورفلي، مؤسسة مصطفى قانصوللطباعة ، تونس ، 2009.

7.توظيف الضمائر في السيرة الذاتية ،غربة الراعي لاحسان عباس أنموذجا: أ.دبلاوي نادية و د. ابراهيم علي ، جامعة احمد بن بلة ،وهران 1(الجزائر)، https://revuse.univ-ouargla.dz/index.php/numero-11-2016/3179-mkd11

8.الحلم والواقع ، نيكولاس برديائف، ترجمة: فؤاد كامل ، مراجعة: على ادهم ، المنشورات الجامعة ، توزيع مكتبة السائح طرابلس، 1985

9.جماليات المكان،جاستون باشلار،ترجمة:غالب هلسا،دار الحرية للطباعة،1980.

10.دراسات في علم الاجتماع العائلي ، مصطفى الخشاب ، دار النهضة العربية، بيروت ، 1981.

11.رائحة ، التفاصيل ، سليمان الصّدي، دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ،2018 ،

12.سرد الآخر .. الأنا والآخر عبر اللغة السردية ، صلاح صالح ، الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2003.

13.شاعرية احلام اليقظة- علم شاعرية التأملات الشاردة، غاستون باشلار،ترجمة:جورج سعد،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،ط1،1991.

14.الشخصية وعملياتها العقلية ،د. ليلى خليل داود ، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب ، 2004.

15.شعر السجون في الادب العربي الحديث والمعاصر ،د.سالم المعوش ،دار النهضة العربية ، بيروت –لبنان ،ط1، 2003.

16.علم اجتماع الادب ، سيد بحراوي ، دار نوبار للطباعة ، القاهرة، ط1، 1992 .

17.فن الحب " بحث في طبيعة الحب وأشكاله " ، اريك فروم ، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد ،دار العودة ،بيروت ، ط2 ، 1981 .

18.فن الوجود ،إريش فروم، ترجمة : إيناس نبيل سليمان ، دار الحوارللطباعة والنشر والتوزيع - سوريا ،ط ، 2014.

19. الكاهن ضروري لحياة الكنيسة، البطريركية الكلدانية : http://saint-adday.com

20.لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، 2005 .

21.اللغة المنسية ، أريك فروم ، ترجمة : حسن قبيسي ، ، المركز الثقافي العرب ط1،(د.ت)

22.ما هو الوعي ، الهام الحدابي : https://www.ida2at.com

23.المجتمع السليم ، اريك فروم ، تعريب محمود محمود ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، سلسلة الفكر المعاصر"مكتبة الانجلو المصرية 1990

24.مدخل الى سيسيولوجيا الثقافة ، ديفيد انغليز ، جون هيوسون ، ترجمة: لما نصير . المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، بيروت ،ط 1، 2013 .

25.المراقبة والمعاقبة : ولادة السجن ، ميشال فوكو، ترجمة : د.علي المقلد ، مراجعة وتقديم مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومي –بيروت ،1990.

26.معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تح : عبدالسلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ،ط1 ، 1982 .

27.نظرية الأدب ، رينيه ويليك واوستين وارين ، ترجمة : محيي الدين صبحي ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1987.

28.النمو النفسي للطفل - عفاف احمد عويس - عمان، الأردن ، دار الفكر ، 2003.

29.هكذا تكلم زرادشت ، فريدريك نيتشه ، ترجمة جديدة كاملة ، المكتب العالمي للطباعة والنشر بيروت ، لبنان ، ط1،

30.ويكيبيديا الموسوعة الحرة : الاسقفية : https://ar.m.wikipedia.org/wiki

31.يوتوبيا ، توماس مور ، ترجمة :انجيل بطرس سمعان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر .

32.اليوتوبيا والفلسفة ، الواقع اللامتحقق وسعادات التحقق ، مجموعة من الاكاديميين العرب - الرابطة العربية الاكاديمية للفلسفة ، اشراف وتحرير أ.د. عامر عبد زيد الوائلي وآخرين ، دار الأمان ، الرباط .ط1، 2014 .